

الحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

محمد النوي
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

ملخص:

يتناول هذا البحث حياة العرب الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، بالاعتماد على القرآن والشعر وعلى مصدرين من المصادر الإسلامية المبكرة هما كتاب الأصنام للكلبي وكتاب المنمق في أخبار قريش لابن حبيب البغدادي. وهو بحث يسعى إلى تجاوز نزعة التعميم والاحتقار التي تلف حياة العرب قبل الإسلام لا سيما ما تعلق بالجوانب الدينية منها، ويسعى كذلك إلى تبين الصلة بين تدين العرب وأنماط اجتماعهم، وإلى الوقوف على الروابط بين الإسلام وعقائد العرب وطقوسهم السابقة.

مدخل:

يعاني تاريخ العرب قبل الإسلام من التعميم والتجاهل الذي قد يبلغ حد الاحتقار لدى فئات كثيرة. ويزداد هذا الأمر رسوخاً في باب الاعتقادات الدينية بما أن الإسلام قد جبّ ما قبله في نظر عدد من الباحثين. ونعتقد أنّ وسم هذا العصر بالجاهليّة بما يحمله اللفظ من مطاعن دليل على ما نذهب إليه.

إنّ محاولة التعرّف على الحياة الدينية العربية قبل الإسلام هي باب إلى معرفة العصر برمته من جهة، وباب كذلك إلى فهم الحدث الإسلامي وإلى فهم القرآن باعتباره خطاباً محاوراً لمتقبّليه الأوائل الجاهليين.

نعني بالحياة الدينية في هذا السياق جملة البنى الذهنية والطقوسية والسلوكية المتعلقة بالعقيدة، بل بالظاهرة الدينية: عبادة الأصنام، والحجّ، والشرك والتوحيد، والصلة بالغيب وأعوانه من جنّ ورئيّ وملكٍ وشيطان، والجماعات الدينية كالحنفاء والنسّاك والنصارى...

وقد تخيّرنا لدرسنا مصدرين من المصادر الإسلامية المبكرة:

- الكلبّي (هشام بن محمّد بن السائب، ت 204 هـ): كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، المكتبة العربية (نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتاب. القاهرة 1924).

والكلبي من رجالات الكوفة وعلمائها، عاش في القرن 2 هـ، وتوفي سنة 204 هـ. ولا يعلم تاريخ ولادته على التحديد فقد أغفل كلّ من أرّخ له ذكر تاريخ ولادته.

أخذ من مشايخ عصره من مثل ابن سعد (ت 230 هـ) وابن حبيب (ت 245 هـ) كما نقل عنه جملة من اللّاحقين منهم الجاحظ (ت 255 هـ) والطبري (ت 304 هـ) ويبدو من خلال قائمة مصنفاته التي أوردها ابن النديم في الفهرست أنّ الرّجل كان نسابة راوية للشّعر عالمًا به إخبارياً جغرافياً. وقد اشتهر الكلبّي بين أهل عصره بالتشيع وجرحه من أجل ذلك أصحاب مدرسة الحديث.

أمّا عصره فهو عصر التدوين بامتياز: تدوين المعارف المتوارثة على اختلافها وترجمة علوم الأوائل، وهو كذلك عصر بداية تكوّن المدارس الفقهيّة والكلاميّة، وبداية استقلال العلوم بعضها عن بعض (التاريخ والأنساب والسير والفقّه والحديث...).

كتاب الأصنام: لا يستهلّ الكلبّي كتابه بخطبة تبين عن دواعي تأليفه ولا عن منهجه فيه كما جرت العادة، وإنّما هو مجموعة من الأخبار تخضع لما يخضع له جنس الخبر من سند ومتن أحياناً، ويهمل السند

2- ما علاقة حياة العرب الدينية قبل الإسلام بأنماط اجتماعهم ونظمهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية (الحياة القبلية، الأحلاف، التجارة...).

3- ما هو وجه الصلة بين تدين العرب قبل الإسلام والحدث الإسلامي؟

4- كيف تمثل المؤرخ المسلم حياة العرب الدينية الجاهلية وهو يحدث عنها؟

بلاد العرب وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية قبل الإسلام

شبه الجزيرة العربية [أعرابيا في المصادر القديمة] هي موطن العرب قديماً، وهي تقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا، يحدها البحر الأحمر شرقاً والمحيط الهندي جنوباً وبحر الخليج غرباً (لذلك تسمى شبه جزيرة) وبلاد الشام شمالاً. وهي بلاد فسيحة، أرضها حرّات (حجارة سوداء نخرة) ورمالها وعساء. وتقسّم قديماً إلى خمسة أقسام هي تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن (تضمّ اليوم العربية السعودية وعمان وقطر والإمارات والبحرين واليمن). لقد جعل هذا الموقع الجغرافي بلاد العرب حلقة اتصال بين مصر وبابل وهما موقعان لأهمّ الحضارات القديمة، وكذلك هي حلقة وصل بين سوريا والمحيط الهندي ممّا جعل للعرب اطلّاعاً على الديانتين اليهودية (المصرية) والمسيحية (السورية)، أمّا البابليون والآشوريون ثمّ الفرس (العراق) فقد كانت لهم أيام مع العرب فأقاموا على تخومهم ممالك عربية صغيرة تحمي ظهورهم من غارات البدو والعرب (مملكة الحيرة).

إنّ أهمّ المراكز الحضريّة العربيّة كانت إمّا في اليمن (صنعاء، نجران، عدن) أو على أطراف شبه الجزيرة العربيّة (تدمر، النبط، الحيرة) أمّا داخل الجزيرة فهي مراكز ناشئة كمكّة ويثرب والطائف واليمامة (الحجاز خاصّة) وتصورّ المصادر القديمة جدّاً (قبل الميلاد) سواء منها التاريخية كالتّصوص الآشوريّة أو الدينية كالتّوراة بلاد العرب على أنّها بلاد العطش وشظف العيش (سفر أشعياء 12: 13-14).

تغلب على العرب البداوة، لقد عاش أغلبهم رحلاً يتتبعون الماء والكأ، وأنبنى نظامهم الاجتماعي على القبليّة فكانت القبائل تتنازع أحياناً، وتتحالف أحياناً أخرى حسب ميزان المصالح. وينقسم العرب في عرف النسابة إلى عرب الشّمال (عرب مستعربة، العدنانيّون، النزاريّون) وعرب الجنوب (عرب عاربة، اليمانيّون، القحطانيّون)، وهذا التقسيم هو في الحقيقة تقسيم حضاري: بدو في الشّمال وحضر في الجنوب. لكن ذلك لا يعني الانفصال بينهما ولا الثبات فكثيراً ما كان العرب يظعنون (الأوس والخزرج من عرب الجنوب استقرّوا في الشّمال: يثرب).

ويقسم النسابة عرب قحطان إلى كهلان وحمير: ومن فروع كهلان طيء (في الشمال) وعاملة وجذام (بادية الشام) وهمدان ومذحج (اليمن) والأزد (عمان) ومنهم الغساسنة وخزاعة. ومن فروع حمير: قضاة (شمال الحجاز) وتتوخ وكلب (بادية الشام) وجُهينة وعذرة (الحجاز).

أمّا عرب عدنان فينقسمون إلى ربيعة ومضر، ومن فروع ربيعة أسد ووائل (بكر وثلعب) (بالحجاز)، ومن فروع مضر: قيس عيلان ومنها هوازن وسُلَيم وغطفان وعبس وذبيان (نجد)، ومن فروع مضر أيضًا تميم (بادية البصرة) وهذيل (قرب مكة) وكنانة التي منها قريش (سكنت مكة وجنوبها).

ويلاحظ الناظر في النظام القبلي العربي أنّ ثمة وحدات تتجاوز القبليّة (الجدّ، الأصل) ووحدات أصغر منها (البطن، الفخذ، العشيرة، البيت...) وهي ظاهرة لاحقة بكلّ نظام اجتماعي يقوم على وحدة الدم، إلاّ أنّ الحلف والولاء والجوار والمصاهرة كانت آليات تتدخل في تشكيل القوى الاجتماعية.

وقد جعل هذا النظام الاجتماعي الفرد ينصهر في الجماعة حتّى يكاد لا يشعر بوجوده الشخصي (هيمنة ضمير الجماعة في معلّقة عمرو بن كلثوم مثلاً)، أمّا إذا ما خرج عن شرعة القبيلة فإنّها تخلعه في الأغلب فيوالي قبيلة أخرى أو يهيم في الصحراء صعلوكًا. وللقبيلة رئيس/شيخ له المرباع أو الخمس من الغنائم، وهو يدير شؤون قبيلته يعاضده في ذلك منتدى القوم (دار الندوة) ويتكوّن عادة من حكمائها وأثريائها. وتشارك المرأة في شؤون الحياة جميعها إلاّ أنّ قيام الحياة على الغزو/الحرب جعل مكانتها دون مكانة الرّجل.

أمّا الحياة الاقتصادية فتقوم على أسّين: الرّعي والتّجارة، إذ يعيش قسم كبير من البدو خاصّة على ما تنتجه الشاء والإبل، وقد يفايضون نتاجها بما يحتاجونه. وهم لذلك طاعنون أبدًا، أمّا القسم الثاني – وهو حضري خصوصًا – فقد برع في التجارة. ونظرًا إلى أنّ طريق البحر لم تكن آمنة فقد شقّ الجزيرة العربيّة طريقان تجاريّان نشطان يربط أحدهما بين حضرموت والبحرين، ويربط الثاني بين اليمن والشّام ويمرّ من مكة التي تقع في منتصف المسافة تقريبًا (نقل غلات اليمن وطيب الهند وحريرها إلى الشام ومصر، ونقل حبوب الشام ومصر وصنائعها إلى اليمن). وقد ساهم العرب في هذه التجارة بطريقتين: فتاجروا لأنفسهم، جاء في سيرة ابن هاشم: "ثمّ إنّ رسول الله (ص) سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلًا من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلًا من قريش أو أربعون"¹ وجاء في الأغاني: "كانت أرض الحبشة لقريش متجرًا ووجهًا"²، أو حموا القوافل التجارية وكانوا أدلاء لها مقابل جُعلٍ.

¹ - ابن هشام، السيرة النبويّة، ج 2، ص 180

² - الأصفهاني: الأغاني، ج 8، ص 52

والشمس والكواكب...⁵، إلا أنّ الثابت أنّ عبادة الأصنام كانت هي العبادة الرَّائجة في الجاهليّة، وليست عبادة الكواكب أو الملائكة أو الجنّ مثلاً سوى لاحق من لواحق عبادة الأصنام مثلما سنبين ذلك لاحقاً.

وتعدّ عبادة الأصنام أبلغ مظهر للشرك الجاهليّ بمعنى الاعتقاد بالاشتراك في الربوبية بين الصنم والإله، دون أن يبلغ الصنم مبلغ النديّة للإله.

ذهب اللغويّون إلى التمييز بين الصنم والوثن فقالوا: "الصنم ما كان له جسم أو صورة وما لم يكن كذلك فهو وثن" وقالوا أيضاً "ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضّة على صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن"⁶. إلا أنّنا نعتقد أنّ هذا التمييز بين الأصنام والأوثان متأخّر، لأنّنا نرى القرآن قد استعمل "صنم" و"وثن" استعمال الترادف، جاء في الأعراف 138/7 "جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" وجاء في العنكبوت 17/29 "إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا".

وقد يلحق بالأصنام والأوثان لفظ ثالث هو الأنصاب (مفرده: نَصَبٌ) إلا أنّ علماء اللّغة قد مالوا إلى اعتبار الأنصاب الحجارة التي كانت تستعمل مذابح للأصنام⁷.

إنّ وصف الرّواة للأصنام يجعلنا نميل إلى اعتبار الصنم أوسع من التمثال وإن اشتمل عليه، يقول الكلبي محدثاً عن العزّي "فبعث النبيّ خالد بن الوليد فقطع الشجر وهدم البيت وكسر الوثن"⁸ بيد أنّ التماثيل المصقولة من الحجارة كانت في الأغلب الأعم لبّ الصنم.

ويلاحظ المتأمل في هذه التماثيل أنّها على صورة الإنسان فـ"هبل من عقيق أحمر على صورة الإنسان" و"الفلس أسود كأنه تمثال إنسان" وود "كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرّجال، عليه حلّتان متّزرتان بحلّة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلّده وقد تنكّب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء وفضة فيها نبل"⁹.

⁵- انظر مثلاً: الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج2، ص ص 197-240

⁶- ابن منظور: لسان العرب، مادة صنم. والزبيدي: تاج العروس، مادة وثن. والكلبي: الأصنام، ص 53

⁷- ابن سيده: المخصص، مادة نصب.

⁸- الكلبي: كتاب الأصنام، ص 27

⁹- نفسه، ص 28 و56 و59

الصنم- يقري الضيف ويطعم المساكين ويؤلف قلوب الناس على الصنم: يذكر أبو خراش الهذلي في لاميته أنّ ديبية السلمى سادن العزى قد حذاه نعلين¹⁸.

وكان العرب قبل الإسلام يقسمون بالأصنام، قال شاعرهم:

إنّي حلفت يمين صدق برّة بمناة عند محلّ آل الخزرج

ومن أشهر أيمانهم: أقسم بربّ العزى السعيدة، كما كانوا يسمّون أبناءهم بإضافة "عبد" إلى اسم الصنم: عبد العزى، وعبد اللات، وتيم اللات، وزيد اللات، وعبد شمس، وعبد المحرق، وعبد الشارق، وأمة العزى، وعبد مناة...

ويهدون إليها الهدايا: القلائد والسيوف والحريير والذهب والدراهم، وقد كان للعزى غبغب أو جبّ تلقى فيه هذه الهدايا. وكانوا يسكبون في بعض زوايا الحرم ماءً أو حليباً أو خبزاً يأكله الطير، وقد سماوا بعض أصنامهم لذلك مطعم الطير. وكانوا يذبحون لها العنائر زكاة لماشيئهم إذا بلغت الإبل أو الغنم عدداً معلوماً، ويتمّ العتر على نصب الصنم وفق طقوس احتفالية (إناخة البعير عند الفجر، الطواف به، التلبية عند نحر السادن له، سكب الدم فوق قنّة الصنم¹⁹، غمس اليدين في الدم تبرّكاً وعهداً...) ويستسقون عند الصنم إذا ما احتبس عنهم الغيث. ويتعهدون أصنامهم بالطيب والبخور الزينة ويتمسحون بها في غدوهم ورواحهم، يستنون من ذلك الحيض من النساء، بل إنّ الرّجل والمرأة يعتزلان بعضهما عند العبادة²⁰، ولعلّ أسطورة أساف ونائلة أبلغ دليل على ذلك، قال النابغة:

"حياك ودّ فأنا لا يحلّ لنا لهو النساء وإنّ الدين قد عزم"²¹

ولعلّ هذا الملمح يؤكّد لدينا أنّ زيارة الصنم تقتضي المبيت عنده والمقام أياماً تطول وتقصّر، وهو ما يؤكّد كذلك أنّ عبادة الصنم استوجبت عندهم طهارة معلومة أركانها.

أمّا الطّقس الأساسي الذي يجمع عليه الرّواة فهو الطواف بالصنم، وهو طواف تنشد خلاله الأناشيد الدينية وتطلب الحاجات ويصحّ المؤمنون خلاله تسيحاً وتهليلاً وتضرّعا. قال ربيع الفزاري:

¹⁸ - الكلبي، نفسه، ص 24

¹⁹ - قال شاعرهم: أما ودماء ماترات تخالها على قنّة العزى أو النسر عندما

²⁰ - الكلبي، نفسه، ص 10

²¹ - نلاحظ أنّ الطاهر بن عاشور قد استبدل "حياك ود" بـ"حياك ربي" في تحقيقه ديوان النابغة.

1- "وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَمَا نِي يُوقُونَ" (العنكبوت 61/29).

2- "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر 3/39).

3- "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس 18/10).

4- "فَاسْتَفْتِهِمْ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفِكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ. فَآتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ" (الصفافات 37 / 149-159) كذلك الإسراء 40/17 والزخرف 17/16/43 والجن 3/72 والنجم 27/53.

5- "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ" (النجم 53 / 19-22).

لقد وهم الباحثون إذن حين قسّموا العرب إلى عبّاد الأصنام وعبّاد الكواكب وعبّاد الجنّ وعبّاد الله، وإنّما هي عبادة واحدة: عبادة الصنم الذي تحلّ فيه الملائكة التي هي بنات الله من اقترانه بالجنّ.²⁷

وفضلاً عن القرآن، تشهد المصادر على رواج عبادة الله بينهم، وهذه المصادر هي كتب الأخبار، والشعر الجاهلي، والكتابات العربية الجنوبية قبل الإسلام (المسند الحميري). ومن مظاهر رواج هذه العبادة التسمية بأمة الله وبعبد الرحمان وبعبد الله وهم مؤنون، وقد ذكر ابن حبيب في المحبر حوالي ثلاثين رجلاً تسمى كلهم بعبد الله في الجاهلية²⁸. ومن مظاهرها أيضاً شيوع صيغة موحدة للتلبية: "لييك اللهم لبيك"، وشيوع عبارات مثل: باسم الله، أيم الله، والله، الله درك، جزى الله، لحا الله. وقد وردت أسماء الله في المسند الحميري كالرحمان (لا تجمع في العربية: توحيد) والسميع

²⁷ - محمد النوي: الوحي من خلال مصنفات السيرة النبوية قديماً وحديثاً، أطروحة دكتوراه، نسخة مرقونة. الفصل الأول: الوحي قبل البعثة المحمدية

²⁸ - ابن حبيب: المحبر، ص 278

والحكيم وإلاه السماء، كما ورد في النقوش النبطية ما يلي: "بلى والله ذكريات خليص بن شلي".
ونجد اسم الله حاضرًا بكثافة في أناشيد ترفين (ترقيص) الأبناء الرضع²⁹.

أمّا الشعر الجاهلي فقد حفل بذكر الله أيّما احتفال:

قال زهير بن أبي سلمى:

"فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يُعجل فيُنقم"

وقال أمية بن أبي الصلت:

"إله العالمين وكلّ أرض وربّ الرّاسيات من الجبال"

وقال الإيادي:

"ونحن إياد عبيد الإله ورهط مناجيه في السّلم"

وقال لبيد:

"وكلّ امرئ يومًا سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصل"

وقال أوس بن حجر:

"أطعنا ربّنا وعصاه قوم فذقنا طعم طاعتنا وذاقوا"

وقال أيضًا:

"واللات والعزى ومن دان بينها وبالله إنّ الله منهنّ أكبر"

إنّ هذا البيت الأخير قد أجمل فأبان، ولخصّ فمحصّ، ذلك أنّ قسمًا كبيرًا من العرب قبل الإسلام كانوا في منزلة بين المنزلتين: الشّرك والتوحيد: لا الشّرك المحض أشركوا، ولا التوحيد الخالص وحدوا: ذلك ما يسمّيه ماكس مولر l'henotheism.

²⁹- ابن حبيب: المنمق، ص 347، قالت هند ترفن ابنها عبد الله: "والله ورب الكعبة لأنكحن ببة جارية خدبة مكرمة محبة تحب من أحبه"

الوسطاء وخطابهم وطقوس الاتصال بالمفارق

إنّ عالم الجاهلية كان عالمًا عامرًا بالقوى اللامرئية، لعل أهمها الأرواح والهواتف والملائكة والجن. ويبدو أنّ كل تلك القوى ترتد إلى الجن وتتحدّر منها بما في ذلك الملائكة. وقد اعتقد الجاهليون إمكانية الاتصال بين البشر وهذه القوى اللامرئية. وسننظر في ما يلي في نموذج الكاهن باعتباره وسيطاً بين الجماعة والألوهة.

الكاهن:

نظرًا إلى غلبة نمط عيش الترحل على العرب في الجاهلية، وإلى غياب المؤسسة الدينية فإنّه لم يظهر بين الجاهليين تنظيم كهنوتي شأن العبرانيين³⁰. ومع ذلك فقد ظهر الكاهن وأطلقت هذه اللفظة على "الرجل المتكهن أي الذي يتنبأ بالغيب ويتحدث للناس بما قد يحدث لهم في المستقبل"³¹. ويذهب الباحثون إلى أنّ لفظ الكاهن هو اسم جنس ينضوي تحته الناهضون بشتى طرق الإخبار بالمغيبات كالعراف والحازي والسادن والقائف والزاجر والمنجم والعائف والشاعر والحكم...³².

وعمومًا يمكن أن نرد أدوار الكاهن إلى أدوار ثلاثة:

دور رجل الدين، وهو في ذلك يتمثل مع الكوهين العبري، ويظهر هذا الدور من خلال الأسماء البديلة التي للكاهن كالحازي، وذي إله، والرب، والسادن، والحاجب. ويمكن أن نمثل له بشخصية الكاهن عزي سلمة، الذي يبدو أنّه كان كاهنًا على علاقة بالرربة العزي³³، كما ورد في بيت لأحيحة بن الجلاح قوله:

فهل من كاهن أو ذي إله إذا ما حان من رب أفول [الهزج]

وإضافة إلى خدمة السدانة، كان الكاهن يسهر على خدمة رب القبيلة، ويحمله أثناء حل القبيلة وترحالها.

³⁰- حول الكاهن العبراني انظر: قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، ط 1، 1995، مصطلح "كاهن، كهنوت" ص ص 791-794

³¹- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 190

³²- انظر:

Fahd (t):

- la divination arabe, éd Sindbad, Paris 1987, p 106

- art «Kahin» dans EI2

كذلك: عادل خضر: الأدب عند العرب، مقارنة وسائطية، ص 235

³³- جاء في المنق: "سلمة اسمه وعزي اسم شيطانه" ص 102

دور قائد القبيلة: فقد كان أغلب الكهان من ذوي الشرف والرياسة في قبائلهم: كان زهير بن جناب رئيس كلب، وكان عوف بن ربيعة بن سودة سيد بني أسد، وكان جذيمة الأبرش ملكاً مطاعاً، وكان مصاد بن مذعور القيني رئيساً قد أخذ مبراع قومه دهرًا، أما الكاهنة طريفة فكانت زوجة عمرو بن عامر مزقياء أحد ملوك اليمن، وكانت سلمى الهمدانية بنت سيد همدان³⁴. وقد تولى الكاهن قيادة القبيلة في الحرب كما هو حال كاهن بني أسد. وتلحق بالسيادة مهمة الفصل في الجليل من الأمور كالحكم في الخصومات والقضاء في المناقرات³⁵.

دور المتنبي: وهو الدور الذي يهمننا في هذا السياق. إن أهم وظيفة للكاهن هي وظيفة تعرف الحوادث والإخبار بالمغيبات والوقوف على الأمور المستقبلية عن طريق تقنيات **انخطافية** (Extatique) **نبوية** (Oraculaire). ولعل النظر في مصادر علم الكاهن، وفي الأعراض البادية عليه، وفي الخطاب الصادر عنه، وفي الوظائف التي ينهض بها خلال هذا الدور كفيل بتحقيق حظ الكاهن من الوحي.

- إن علم الكاهن رديف للوحي كيفما قلبته، فهو ينتقى علمه عن طريق كائن لطيف خفي هو الرئي، ويسمى كذلك التابع والصاحب والمولى والولي، يلقي إليه المعرفة بكيفية خفية خاصة لا يتمكن الناس من سماعها ولا من ملاحظة اللقاء بين المبلغ والمبلغ.

أما كيفية العلم عند الكاهن فتكون بأشكال متنوعة: عن طريق السماع: يأتي الرئي الكاهن فيلقي إليه علم الغيب، وهو سماع خاص لا يتمكن منه الآخرون³⁶، وعن طريق النفط في الروح، إذ يجد الكاهن المعرفة في نفسه فيتكلم أو يتكلم الآخر من خلاله³⁷، وعن طريق الرؤيا الصادقة يراها الكاهن أو ترى له وقد تكون رمزاً لا يفكه إلا الكاهن، فتحتاج إلى التأويل وقد لا تحتاج إلى تأويل بأن يرى الكاهن أثناء النوم حوادث المستقبل تجري

³⁴- انظر: المسعودي: مروج الذهب: ذكر الكهانة ص 166 وما بعدها، الألويسي: بلوغ الأرب: علم الكهانة والعرافة ج 3 ص 270 وما بعدها، قصص العرب ج 1 الباب 2: في القصص التي تتضمن معتقداتهم وأخبار كهانهم ص 69 وما بعدها، الإشبيلي: المستطرف من كل فن مستظرف. مطبعة حجازي القاهرة 1953 ج 2 الباب 60: في الكهانة والقيافة ص 90 وما بعدها.

³⁵- من ذلك ما جاء في خبر جفر عبد المطلب زمزم: "... فلما بدا له الطوي كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إننا بنر أينا إسماعيل وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا فاعل فاجعلوا بيني وبينكم من أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد. قال نعم. وكانت بالشام..." (المنمق في أخبار قريش ص 109، كذلك ابن هشام، ج 1، ص 107)، كذلك احتكام عبد المطلب وجندب بن الحارث الثقفي إلى عزي سلمة الكاهن في أموال، وقضاء الكاهن الخزاعي في منافرة هاشم بن عبد مناف وأميرة بن عبد شمس واحتكام عائذ بن عبد الله المخزومي والحارث بن أسد بن عبد العزى إلى كاهن بعسفان، واحتكام بني أمية وبني مخزوم إلى سطيح الكاهن (انظر: المنمق، ص ص 94-104)

³⁶- ومثالها: "... قال خنافر بن التوأم الحميري: كان رئيي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني فلما شاع الإسلام فقدته مدة طويلة وساءني ذلك، فبينما أنا ليلة في ذلك الوادي نائمًا إذ هوى هوي العقاب فقال: خنافر! فقلت: شصار! فقال: اسمع أقل. فقلت: قل أسمع فقال: عه تعنم، لكل مدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت أجل قال: كل دولة إلى أجل، ثم يتاح لها حول، انتسخت النحل، ورجعت إلى حقاتها الملل..... (الألويسي: بلوغ الأرب، ج 3، ص 291)

³⁷- ومثالها: "... ثم انطلقوا إلى الكاهن (عزي سلمة) وقد خباؤا له خبيئاً وهو رأس جرادة فجعلوه في خربة مزادة وعلقوه في قلادة كلب لهم يقال له سوار... فقال ما حاجتكم؟ قالوا: إننا قد خباؤنا لك خبيئاً فأخبرنا عنه قال: نعم خباؤم لي شبيئاً طار فسطع، فتصوب فوقع، فالأرض منه بلقع.... هو رأس جرادة في خربة مزادة في عنق سوار ذي القلادة (ابن حبيب: المنمق، ص ص 95-69)

في مخيلته³⁸، وعن طريق الرؤية وهي مشاهدات يراها الكاهن ويراها الناس، لكن الكاهن يتلقى من خلالها رسالة خاصة مشفرة يقف وحده على معناها الحقيقي³⁹.

إن الكاهن مالك للحقيقة، مطلع على أسرار الغيب، صادق في ما يقول. وقد عبرت الروايات التراثية عن أصالة علم الكاهن بنجاح كل كاهن في اختبار معرفته عن طريق الخبيء/الخبيئة: يخبئون للكاهن شيئاً ويسألونه فيعلمهم بالشيء ومكان إخفائه، وبالنزول عند حكمه في النوازل والمنافرات التي تحدث بينهم، وبعثوث نبوءاته: تنتبأ الكاهنة طريفة بخراب سد مأرب فيكون ذلك، ويرى كاهن بني أسد فرسان العدو فتصدق الغارة، ويبشر شق وسطيح بنبوة محمد فتحدث.

- إن الأعراض البادية على الكاهن وهو يتلقى علمه تؤكد أنه يعيش حال الانخطاف (extase) وهي الحال المرافقة لكل كلام نبوي. فالكاهن "يكون أثناء تكهنه في غيبوبة أو في شبه غيبوبة في الغالب، ذلك أنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهود صعب لا يتحملة كل إنسان. والاتصال الروح به يتصحب العرق منه، خاصة إذا كان المتكلم الكاهن نفسه. ويكون التكهّن في الغالب في مكان هادئ تكتنفه ظلمة أو عتمة... ويسبقه حرق بخور في الأكثر"⁴⁰ وقد تم التعبير عن حال الانخطاف تلك من خلال بعض الأسماء البديلة للكاهن. فالكاهن عمرو بن الجعيد سيد ربيعة كان يسمى الأفلح، وتعني هذه العبارة الشخص الذي تعتريه الرعدة والنقضة، أما الكاهن زهير بن جناب سيد كلب فكان يسمى الحازي، وتعني هذه العبارة الشخص الذي يمارس طرقاً تنبؤية وسحرية.⁴¹ أما الكاهن سطيح الغساني "كان أول ما تكهن به أنه كان نائمًا في ليلة صهاكية مظلمة مع إخوته في

³⁸- جرت العادة أن يرى الآخرون رؤى يقصونها على الكاهن فيعبرها لهم أو أن يرى الكهان رؤى يعبرونها بأنفسهم، وقد جمعت قصة عفراء الكاهنة مع مرثد بن عبد كلال بين هذين النوعين: "...فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرتة، فلما انتبه أنسبها وثبت في نفسه ارتباعه منها... ثم إنه حشر الكهان فجعل يخلو بكاهن بعد كاهن ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندي (...). فقال: يا عفراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل إنها رؤيا منام ليست بأضغاث أحلام. قال الملك: أصبت يا عفراء فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيت أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لأمع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعت فيما أنت سامع، دعاء ذي جرس صاعد: هلموا إلى المشارع، فروي جارح، وغرق كارح" فقال الملك: أجل هذه رؤياي. فما تأويلها يا عفراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوك تبابع، والنهر علم واسع، والداعي نبي شافع، والجارح ولي تابع، والكارح عدو منازع....." (قصص العرب، ج 1، ص ص 78-80، كذلك الألويسي: بلوغ الأرب، ج 3، ص ص 296-298)

³⁹- ومثالها ما رآته طريفة الكاهنة: "...فخرجت تمشي تريده ومعها وصائف لها فيبينما هي تمشي إذ عرض لها ثلاث مناجد وهن منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن فلما رآتهن قالت لوصائفها: إذا ذهبن هؤلاء المناجد فأعلمنني فلما ذهبن أخبرتها فقامت مسرعة فعارضها خليج جنات عمرو، فوثبت منه سلحفاة، فوقعت على التراب، واستلقت على ظهرها، ورامت أن تنقلب فلم تستطع وهي تحثو التراب على رأسها...حتى دخلت الحديقة نصف النهار حين سكن الريح، فإذا شجر الحديقة متناصلة يميناً وشمالاً من غير ريح..... فقالت: هيهات هيهات يا عمر تقاوم الأمر ومنع السر. قال وما ذلك لله أبوك؟ فقالت: والنور والظلماء، والأرض والسماء، ليهلكن الشجر بالماء، ثم الماء..... أخبرتني المناجد بسبع سنين شدائد يقطع فيها الولد الوالد..... إني أقول تلهفاً لما رأيت السلحفاة علت خليجاً أنفاً تغترف التراب بيديها غرماً...." (وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حمير، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية. صنعاء ط 2، 1979، ص ص 276-277)

⁴⁰- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 316

⁴¹- voir: Fahd (T):

- art: Kahin, dans EI2

- La divination arabe. P 103

كذلك: عادل خضر: الأدب عند العرب، ص 237

الطبيب⁴⁶. ونلاحظ أنّ تقنية التفل تتقاطع مع ما ينسب إلى الساحر من نفخ ونفث⁴⁷ كما تتقاطع مع الأخبار المأثورة عن بركة بصاق النبي⁴⁸.

إنّ أهم وظيفة تجعل للكاهن شبهة الوحي هي وظيفة الوسيط بين الجماعة والألوهة: فهو يقدم الأضاحي والقرايين ويقوم بالسدانة، ويحكم بين الناس باعتباره كذلك. ولعل ما يجعل قدمه راسخة في القيام بهذه الوظيفة هي قدرته على الوساطة بين عالم الغيب وعالم الشهادة. فهو يطلع على المستقبل ويترجم إرادة الله، ويخبر بالمغيبات ويعلم ما خفي من حقائق. ويؤول ما ظهر منها تأويلاً صحيحاً...: هو ببساطة مالك أصيل للحقيقة حتى أننا لا نعثر البتة في مجمل الروايات التراثية على نبوءة كاهن زافت، ولا على حكم نبا عن الحق. ومن ثمة لا يمكن أن نرد علم الكاهن إلى مصدر مبتذل وإن كان مفارقاً - كالجن بالمعنى الإسلامي والشياطين الذين يوحون زخرف القول غروراً- وإنما الصواب أن نرده إلى جهة علم نافذة هي الله أو أعوانه الناقلون للحقيقة في تصور الجاهليين.

- إنّ تجربة تلقي العلم عند الكاهن تظل تجربة ذاتية، لا تشاهد منها الجماعة سوى الأعراض البادية عليه من تعرق وغيوبية، ولا تسمع سوى الخطاب الصادر عن الكاهن، وقد أضحى وسيطاً بين الرئی والجماعة. إنّه يحول النبوءة الحاصلة في القلب أو المهموسة في الأذن إلى خطاب يصاغ سجّاً عادة. ويبدو أنّ الكهان قد اختصوا بهذا الضرب من الخطاب حتى أصبح علامة عليهم وصار أسلوباً ينسب إليهم فقول "سجع الكهان"، فالكاهن إذا حكم أو خوطب أو طلب منه تأويل رؤيا أو تكلم من تلقاء نفسه فإنّه لا يتكلم إلا سجّاً. والراجح أنّ السجع ليس مجرد أسلوب اختاره الكهان، وإنما هو علامة على انخراط الكاهن في حال تلقي

⁴⁶- كان زهير بن جناب الكلبي سيد كلب وفارسهم وخطيبهم وطبيبهم، انظر: Fahd (t): La divination arabe p 102 ويؤثر عن قائلهم قوله:

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

ويبدو أنّ الكاهن تسمى طبيباً لمداواته العلل الطبيعية، وعراًفاً لمداواته الأذواء الناجمة عن كائنات مفارقة كالجنون (بمعنى الخبل). فقد جاء في مروج الذهب أنّ دماء جذيمة تشفي من الخبل (ج2ص102). ونلاحظ أنّ الجاهليين تصوروا الدم بمثابة الروح، (مروج الذهب 2 ص165)، فالروح التي تحل في الكاهن هي التي تشفي الأسقام. وتتماثل هذه الوظيفة التي للكاهن عند العرب مع وظيفته عند الإغريق. راجع:

Raymond (bloch): la divination dans l'antiquité. P 20

ولا شك أنّ نهوض الكاهن بوظيفة مداواة تعرب عن نسبة قدرات الكاهن إلى علوي خير، وهو في ذلك يتميز عن الساحر الذي يدين بقدرته إلى علوي شرير.

⁴⁷- إضافة إلى ما جاء في القرآن في وصف السواحر أنّهن "نفثات في العقد" (العلق 4/113)، جاء في قصص العرب أنّ النجاشي لما علم بدخول عمارة بن الوليد المخزومي على نسائه "دعا بعمارة ودعا بالسواحر فجردوه من ثيابه فنفضن فيه، ثم خلى سبيله فخرج هارباً يرد مع الوحش وكان شعره قد غطى كل شيء منه" (قصص العرب، ج1، ص ص 92-94) ولعل الفرق بين الكاهن والساحر كامن في اختصاص الساحر بالشر.

⁴⁸- راجع: البخاري: الصحيح، باب علامات النبوة في الإسلام. دار إحياء التراث العربي. دت. ج 4 ص 234 كذلك ابن سعد: السيرة النبوية من الطبقات الكبرى. مج1، ص 179

النبوءة⁴⁹. ويبدو أنّ بعض الكهان ما إن يؤتوا العلم حتى ينقلب كلامهم سجعاً⁵⁰، ويمتاز سجع الكهان بتراكيبه القصيرة ومفرداته الملغزة وإيقاعه الثري، حتى أنه ليشاكل العبارة السحرية. ولنا في نبوءة زبراء الكاهنة وهي تنذر قومها بني رثام بالغزو نموذج لعبارة الكاهن: "قالوا ما تقولين يا زبراء؟ فقالت: والليل الغاسق، واللوح الخافق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو ختلاً، ويحرق أنياباً عصلاً، وأن صخر الطود لينذر شكلاً، لا تجدون عنه معلاً..."⁵¹.

إنّ خطاب الكاهن يكشف عن ثلاثة ملامح: أولها استقلال معرفة الكاهن وفرادة نصه حتى صار له شكل خاص من الكلام يعرف به، وثانيها التأكيد على قدرة الكاهن على تصريف الكلام واختيار العبارة وإتقان الأسلوب، وهي قدرة قد يكون اكتسبها من جهة العلم التي يمثلها، وثالثها نزوع خطاب الكاهن إلى التأثير في السامع بضروب الإيقاع والإغراب.

الطقوس التعبدية

سندرس في هذا السياق الطقوس التي كان يؤديها العرب المشركون غير النصارى ولا اليهود، لأنّ طقوس هؤلاء معروفة وكتبهم محفوظة. ونعني بالطقوس الشعائر الدينية السلوكية التي كان هؤلاء يأتونها ومن أهمّها:

الحج: كان البيت الذي بمكة "الكعبة" محجة للعرب قاطبة يأتون إليه من كلّ فج عميق رجالاً وركباً، حتى أنّهم سمّوه "كعبة العرب": محجة قومية، ويميّزوه بالتقديس كما يميّزوه بالشكل (المرّبع أو المكعب) وبالكسوة، وقد ذكره الشعراء الجاهليون كثيراً مقترناً بالحجّ، قال زهير:

"فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرهم"

⁴⁹- تظن ابن خلدون إلى أنّ السجع ليس أسلوباً مستقلاً اختاره الكاهن وإنما للسجع علاقة بالعلم الذي تلقاه الكاهن: "وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليستغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص" (ابن خلدون، المقدمة، ط دار الجيل، بيروت، ص 111)

⁵⁰- ذكر المسعودي عن سطيح "كان أول ما تكهن به أنّه كان نائمًا في ليلة صهاكية مظلمة مع إخوته في لحاف والحي خلوف، إذ زعق من بينهم ورن وتأوه، والضياء والشفق، والظلام والغسق، ليطرفنكم ما طرق... (مروج الذهب، ج 2، ص 206)

⁵¹- الألويسي: بلوغ الأرب، ج 3، ص 288 - 289 وفي الباب الذي عقده للكهانة، ج 3، ص 269-306، أمثلة كثيرة لسجع الكهان ولبن شكك بعض الباحثين في أصالة تلك النصوص (جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 190) فإنّها تقوم على الرغم من ذلك شاهدًا على نوع الكلام الذي للكهان، انظر:

Fahd (T):

- Art: SAdJc dans EI2

- La divination arabe. P 165

وقد بلغ الحج قبيل الإسلام حدًا من الانتظام كبيرًا تجلّى في:

- حرمة زمانه: فقد تواطأ العرب على تخصيص ثلاثة أشهر حرم لموسم الحج هي: ذو القعدة، ذو الحجة ومحرم، وهي أشهر أمانة يحرم فيها سفك الدماء وقطع الطريق، ونلاحظ أنّ ذلك كان للحج والتجارة في آن: أسواق: المجنة، عكاظ وذو المجاز. يضاف إلى ذلك شهر رجب المخصص للعمرة. وفيها يتم طقس الهدى: نحر الفتى من الحيوان ابتغاء الزيادة في الرزق.

- قيام مؤسساته: وتتمثل في تنظيم موسم الحج، وفي توفير جهاز يسهر على تصريف شعائره: كمؤسسة السقاية، ومؤسسة الرفادة، ومؤسسة الإجازة: صوفة كانت تدفع بالناس من عرفة، وتجزئ بهم إذا نفروا من منى، وتستهل رمي الحجرات. ولا شك أنّ قريشًا قد سادت بالحج حتّى قسّمت القبائل وفق درجات ولأنها إلى حلّة وحمس.

- استواء أركانه، وهي: الإحرام فيوم التروية فالوقوف على عرفات فالإفاضة إلى مزدلفة فالنحر فالحلق فالطواف واستلام الحجر الأسود فرمي الجمرات.⁵²

الطهارة: رأينا سابقًا أنّ الرجال والنساء يعتزلون بعضهم بعضًا عند المقام في حرم الصنم، وكذلك هم عند الحج. ويذكر المؤرخون طهارة أخرى لهم. قال الشهرستاني: "كانوا يداومون على طهارات الفطرة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد: فأما اللواتي في الرأس فالمضمضة، والاستنشاق، وقصّ الشارب، والفرق، والسواك، وأما اللواتي في الجسد: فالاستنجاء، وتقليم الأظافر، وشفّ الإبط، وحلق العانة، والختان"⁵³.

وكانوا يغسلون موتاهم، ويكفّنونهم ويؤنّونهم في شبه صلاة تختم بالقول: عليك رحمة الله وبركاته⁵⁴. وكانوا يقيمون بعض الصلوات كصلاة الاستسقاء⁵⁵، وتقوم على الاغتسال فالتطيب فاستلام الحجر الأسود، ثم الارتقاء إلى جبل أبي قبيس أو ثبير فيقدّمون رجلاً يتضرّع إلى الله ويؤمن القوم على ما يقول (اللهم سادّ الخلة/أمين، وكاشف الكربة/أمين...).

⁵²- ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص ص 88-96. كذلك ابن حبيب: المنمق، ص ص 127-129

⁵³- الشهرستاني: الملل والنحل، ج2، ص ص 229-230

⁵⁴- نفسه، ص 229. كذلك الألويسي: بلوغ الأرب، ج2، ص 287

⁵⁵- ابن حبيب: المنمق، ص ص 145-147

وكانوا يخطبون من يوم الجمعة في أمور دينهم وديناهم⁵⁶، ويصومون يوم عاشوراء: العاشر من محرّم⁵⁷، وربما صاموا بعض أيام الحجّ. وقد ينقطع بعضهم للاعتكاف والتعبّد في حراء أيّامًا تطول وتقصّر، يساعدهم على ذلك ما وفّرت له التجارة من حياة الأمن والدّعة⁵⁸، يسمّون ذلك النّجوى أو المناجاة. قال بشير بن الحجير الإيادي:

ونحن إياد عبيد الإله ورهط مناجيه في السّلم

يعني بذلك وكيع بن سلمة الإيادي. وهم في جلّ طقوسهم هذه يجعلون الكعبة قبلتهم، ويؤدون اليمين بين الركن والمقام ويسمون ذلك القسامة، يتهيّبون منها تهيّبًا شديدًا، ويروون القصص في من حلف كاذبًا فأهلكه الله. والقسامة غير الاستقسام الذي هو طقس كذلك كُنّا قد أشرنا إليه سابقًا.

ويدل مذهبهم في البحيرة والوصيلة والسّائبة والهامي⁵⁹ أنّهم كانوا يؤدّون الزّكاة على أموالهم إذا بلغت نصابًا معلومًا: "الوصيلة هي الشّاة إذا وضعت سبعة أبطن عمدوا إلى السّابع، فإن كان ذكرًا دُبِح"⁶⁰.

كما كانت لديهم مذاهب في اتّقاء الأذى كالتنفير والتنجيس والتعشير والرقية والحميلة والتعوّذ والزّجر والطّيرة⁶¹ وهي إلى العادات أقرب منها إلى الطّقوس.

الجماعات الدينيّة

أهمّ الجماعات الدينيّة في شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام: عبدة الأصنام - وقد تعرّضنا لهم - واليهود والنّصارى والحنفاء.

⁵⁶- ابن هشام: السيرة النبوية، ج3، ص 63

⁵⁷- الألويسي: بلوغ الأرب، ج2، ص 288

⁵⁸- ابن حبيب: المنمق "فخرج (أبو القارظ) إلى حراء فتعبد تلك الثّلاث في رأسه ثم نزل"، ص 329

⁵⁹- البحيرة: الناقة تشقّ أذنها وتنذر للآلهة، السائبة: الناقة إذا تابعت بين عشر إناث سيبت لا يشرب لبنها إلا ضيف وكذلك نتاجها، الهامي: الفحل إذا نتج له عشر إناث حمي ظهره. ونلاحظ أنّ المصادر تختلف في تعريف هذه الألفاظ لكنّها تتفق في اعتبار هذه الحيوانات منذورة للآلهة.

⁶⁰- ابن حبيب: المنمق، ص 329

⁶¹- التنفير: التسمية بأسماء موحشة لتنفير الأرواح الشريرة، التنجيس: وضع النجاسة لصرف الجن إليها، التعشير: النهيق لتجنب الداء، الرقية: تلاوة كلام غامض للشفاء من مرض أو عين، الحميلة: الخزر الذي يحمل على الصدر لاتقاء الشرور، التعوّد: القول "أعوذ ب...من...، الزجر: إثارة الطير من مكانها فإذا تيامن عند طيرانه سمّي: السانح ودل على الفأل الحسن وإذا تياسر (تشاءم) سمّي البارح ودل على الشؤم، الطيرة: التشاؤم بالأصوات والأسماء والحيوانات والأشياء وعكسها الفأل.

أ- اليهود:

اختلف العلماء في يهود شبه جزيرة العرب: هل هم عرب متهودون أم هم يهود مهاجرون. وقد ذكر اليعقوبي أنّ منّ تهوّد من العرب "اليمن بأسرها... وتهوّد قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهوّد قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام"⁶². وسواء كان هؤلاء عرباً متهودين أو يهوداً مهاجرين فالثابت أنّهم قد اختلطوا بالعرب وتكلّموا بلسانهم واشتركوا معهم في التجارة والزراعة وصاهروهم⁶³. فيثرب مثلاً كانت مدينة يتقاسمها الأوس والخزرج واليهود، أمّا اليمن فكانت أهمّ مراكزهم، وتمكّنوا من السيادة عليها في القرن 6 م. وقد عثر على نصّ مكتوب بالمسند الحميري جاء فيه "تبارك اسم الرّحمان الذي في السّماء وإسرائيل وإلهه ربّ يهود الذي ساعد عبده"⁶⁴. ويذكر الرواة أنّ ملك اليمن تبع الأصغر قد تهوّد وتهوّد معه أهل اليمن، وكذلك كان ذو نواس. وقد أقام أغلب هؤلاء اليهود في الأماكن الخصبة، وبنوا الأطم، واشتغلوا بالزراعة والتجارة والحرف (≠ البداوة) وكانوا قبائل: بنو قينقاع، بنو زعوراء، بنو بهدل...⁶⁵، وتذكر المصادر أنّ كتبهم الدينية كانت متداولة، وسلطة أحبارهم كانت راسخة، وأعيادهم كانت معروفة.

وحتى إن افترضنا أنّهم لم يكونوا عرباً، فإنّ الاختلاط بهم تجارةً ومصاهرةً وشعرًا جعل عرب شبه الجزيرة قبل الإسلام يتعرّفون على الديانة اليهودية وقيمها وعقائدها وأعيادها، فالسموأل مثلاً شاعر ذائع الصيت ضرب العرب به المثل في الوفاء تغنى في شعره بالبعث والقضاء:

ميت دهر قد كنت ثم حبيبتُ	وحياتي رهن بأن سأموت
وأتاني اليقين أنّي إذا متت	وإن رمّ أعظمي مبعوث
بل لكلّ من رزقه ما قضى اللّٰه	ه وإن حزّ أنفه المستميتُ

وقال عدي بن زيد العيادي:

قضى لسنة أيام خلائقه	وكان آخرها أنّ صور الرّجلا
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له	بنفخة الرّوح في الجسم الذي جبلا

⁶²- اليعقوبي: تاريخ، ج1، ص 226. كذلك جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص 514

⁶³- ابن حبيب: المنمق، ص 402

⁶⁴- جواد علي: المفصل، ج5، ص 541

⁶⁵- إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد. مصر 1927

ب- النَّصَارَى:

لم تتغلغل ديانة بين العرب قبل الإسلام تغلغل النصرانية، فقد كانت منتشرة شمالاً ببادية الشام (غسان)، وشرقاً في عمان واليمامة والبحرين (عبد القيس وبنو حنيفة) وبين العراق والشام (الجزيرة: بنو تغلب وبنو بكر وبنو شيبان) وفي اليمن (نجران) وفي نجد (طيء وكندة) وفي الحجاز وتميم (أيلة ودومة الجندل ووادي القرى ويثرب ومكة). قال ياقوت الحموي "كان أهل ثلاث بيوتات يتبارون في البيع أهل المنذر بالحيرة، وغسان بالشام، وأبو الحارث بن كعب بنجران".⁶⁶ وقال اليعقوبي في تاريخه: "وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش، ومن بني تميم: بنو امرئ القيس بن زيد بن مناة، ومن ربيعة: بنو تغلب، ومن اليمن: طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم".⁶⁷ ومن أهم أسباب انتشار النصرانية وقوع بلاد العرب على أطراف إمبراطوريات تدين بالمسيحية (بيزنطة) وحملات التنصير (حملة أبرهة على اليمن) وجهود التبشير (متى وتوما وبرتلموس وأحودمة ~ 559م) والتجارة والرقّ وحاجة العرب إلى حرفيي النصارى.⁶⁸

ولعلّ بقاء قبائل عربية على نصرانيّتها بعد الإسلام، وتفضيلها الجزية على دخول الإسلام، شأن تغلب مثلاً، أبرز دليل على التغلغل الذي أشرنا إليه.

إنّ شعراء من مثل عمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، والمرقشان، والحارث بن حلزة، والمنخل اليشكري، والأعشى، وأوس بن حجر، وعلقمة الفحل، وعدي بن زيد العبادي، وعنترة، وعروة بن الورد، والنابغة الذبياني، ودريد بن الصمة، وامرئ القيس، وحاتم الطائي، وزهير بن أبي سلمى... كانوا نصارى.⁶⁹

وإنّ ألفاظاً من مثل: المنبر، المصحف، الشيطان، الإنجيل، جهنم، القلم، الحرم، التابوت، النذر، العيد، المحراب، الصومعة، الصوم، الصرح، الملائكة... هي ألفاظ نصرانية في منابقتها.⁷⁰

وقد انتشرت الكنائس والبيع والأديرة والصوامع في شبه جزيرة العرب انتشاراً واسعاً، ففي اليمن كانت كنيستان كبيرتان: واحدة بنجران والأخرى بصنعاء "القليس"⁷¹.

⁶⁶- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 703

⁶⁷- اليعقوبي: تاريخ، ج1، ص 227

⁶⁸- سلوى بالحاج صالح العايب: المسيحية العربية، ص 37

⁶⁹- لويس شيخو: شعراء النصرانية.

⁷⁰- لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ص 157-220

⁷¹- الكلبي: الأصنام، ص 39

أما الأديرة فمن أشهرها دير هند ودير عمرو ودير حنّا وديار بكر، وقد ذكر الشعراء كثيرًا رهبان هذه الأديرة ومصابيحهم وقرءاتهم وتبتّلهم وصلاتهم ونواقيسهم وصومهم وخمرهم وملابسهم... حتّى أنّ تشبيهه بياض المرأة أو البرق بأنوار الدير قد أضحى سنة متّبعة في الشعر الجاهلي.

وكانت أعيادهم معروفة مشتهرة بين الناس، ومنها السبّار (عيد البشارة) والقلندس (تمام الأسبوع لولادة المسيح- رأس السنة) والدنح (ظهور الملاك: 30 سنة) والشعانين (دخول المسيح أورشليم) والفصح (بعد الصوم الأربعيني) وكانت مراتب رجال دينهم محفوظة: الأسقف والخبز والقسّ والشماس والرّاهب.. وقد انتشر بين العرب قبل الإسلام مذهب الزّهد النّصراني، ومن ثمّة حثّوا على الكرم وذمّوا حبّ المال، كما حثّوا على العفة وذمّوا السيئات. وقد اختصّ النّصارى من العرب بأسماء تبين عن عقيدتهم كعبد المسيح وعبد الرّحمان وعبد الأعلى وأيوب وإبراهيم... وقد وردت في شعر العرب قبل الإسلام إشارات صريحة إلى رسوخ النصرانية بينهم كقول عدي بن زيد العبادي:

وأوتينا الملك والإنجيل نقرؤه نشفي بحكمته أحلامنا علا

وقال آخر:

أقول إذا صلّيت في كلّ بيعة تباركت قد أكثرت باسمك داعيا

وقال الأعشى:

فإنّي وربّ السّاجدين عشية وما حك ناقوس الصّلاة أبلها

ويلاحظ بعض الباحثين أنّ العرب النّصارى كانوا يصلّون إلى بيت المقدس قبلتهم الدينيّة، ويحجّون إلى مكّة (قبلتهم القوميّة)⁷²، بل إنّ عدي بن زيد العبادي لا يجد حرجًا في القسم بمكّة والصّليب معًا:

سعى الأعداء لا يألون شرًّا عليك وربّ مكّة والصّليب

ولقد كانت صلات العرب النّصارى بالعرب المشركين أمتن من صلاتهم باليهود لأسباب دينيّة وسياسيّة، وربّما عرقيّة، وكانوا يتميّزون في المحافل بحمل الصّليب.

⁷² - سلوى بالحاج صالح العايب: المسيحية العربية، ص 93. ويذكر الأزرقى أنّ الكعبة كانت مزدانة بصور الأنبياء والملائكة وصورة المسيح والعذراء - أخبار مكّة، ص 111

ج- الحنفاء:

اختلف الدارسون في معنى هذه الكلمة واشتقاقها: التحنّف والحنث، فمنهم من ردّها إلى الخروج عن الحنث أي الإثم السالف وتطهير النفس منه، ومنهم من ردّها إلى العبرانية Tehinnoth وتعني الاعتكاف والصلاة إلى الله، ومنهم من ردّها إلى الأرامية Hanêph وتعني الصابئة، كما اختلف الباحثون في مدى اعتبارهم جماعة دينية بدليل تنصّر بعضهم، وإسلام بعضهم لاحقاً... ومردّ تجربة الحنفاء إلى الخبر التالي: "قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له ويعفون عنده، وكان ذلك عيداً لهم في كلّ سنة يوماً، فتخلّص منهم أربع نفر نجياً، ثمّ قالوا بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض. تعلموا والله ما قومكم على شيء. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع. يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً."⁷³

وتذكر المصادر رجالاً في القبائل اشتهروا بعيب الأصنام، ونحن نعتبرهم جماعة لما رأينا من وجوه الائتلاف بينهم، وهي:

- اطلاعهم على الديانتين اليهودية والنصرانية اطلاعاً عميقاً لإجادتهم لغات أخرى غير العربية كالعبرانية والسريانية⁷⁴، ورحلاتهم الكثيرة في البلاد بحثاً عن أجوبة دينية مقنعة لم يلقوها في أغلب الأحيان.
- مفارقتهم عبادة الأصنام وذبائحها، وأكل الميتة، وميلهم إلى الاعتكاف والصوم والتأمل في خلوات تطول وتقصّر، وقد كان حراء من بين أماكنهم المفضّلة.
- التزامهم بمذهب أخلاقي رفيع، كامتناعهم عن شرب الخمر وعن الرّبا، بل بلغ الأمر ببعضهم إلى حدّ جلد ابنه في الخمرة.⁷⁵ يقول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

لا تخطن خبيثات بطيبة واخلع ثيابك منها وانج عريانا

- إتيانهم بالحكمة والكلام البليغ، كقول وكيع بن سلمة الإيادي: اسمعوا وصيّي: الكلام كلمتان والأمر بعد البيان. من رشد فاتبعوه ومن غوى فارفضوه. وكلّ شاة برجلها معلّقة.⁷⁶

⁷³ - ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص 160

⁷⁴ - يعد ورقة بن نوفل المثال الساطع على التبحر في العلم

⁷⁵ - ابن حبيب: المنمق، ص ص 152-154 وص 261

⁷⁶ - الألويسي: بلوغ الأرب، ج2، ص 261

قد يكون هذا التصور واقعا تحت تأثير النصرانية واليهودية بالنسبة إلى زهير، لكن الثابت أن أمية لم يكن نصرانيا ولا يهوديا. وقد لخص جواد علي ديوان أمية فقال: "يتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إله واحد خلق الكون وسواه وعدله، وهو الذي يحيي ويميت ثم يبعث الناس ويحاسبهم: فريق في الجنة وفريق في النار. يساق المجرمون عراة إلى ذات المقامع مكبلين بالسلاسل الطويلة والأغلال، أما المتقون فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال. فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم وحر لا يرين الشمس فيها نواعم في الأرائك قاصرات، على سرر ترى مقابلات، حلين بأساور من لجين وذهب وعسجد كريم، لا لغو فيه ولا تأثيم، ولا غول ولا فيه مليم وكأس يلد بحسن ريتها النديم... وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء: آدم ونوح وقصة طوفانه وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكاية الهدد وقصة إبراهيم وتقديم ابنه للذبح وداود وفرعون وموسى"⁸⁰.

خاتمة:

الحياة الدينية العربية قبل الإسلام غنية في ظواهرها تتقاطع مع شتى الديانات في طقوسها وعقائدها وصلاتها بنواحي الحياة الأخرى الاقتصادية والاجتماعية. وعلى الرغم من بروز عوامل توحيد ديني كالحج إلى الكعبة، أو كاجتماع قبائل مختلفة على معبود واحد، وعلى الرغم من ظهور سلط دينية كالسادة والكاهن والراهب فإن العرب لم يتوحدوا إلا بالإسلام توحدًا سياسيًا ودينياً في آن.

وإنّ وسم حياة العرب الدينية قبل الإسلام بالكفر المحض، والنظر إليها نظرة ازدراء لهو حُكم لا يمت إلى العلم بصلة. ولئن فطن الأقدمون إلى ثراء تلك الحياة فصنّفوا فيها دونما حرج شأن الكلبى وابن حبيب، فإنّ الباحث المعاصر يحتاج إلى تمحيص أخبار القدامى وعرضها على الممكن العقلي والتاريخي ليرجح دونما قطع.

⁸⁰ - جواد علي: المفصل، ج5، ص ص 382-384

قائمة المصادر والمراجع

أ- في اللسان العربي

- الأزرقى (أبو الوليد محمد، ت 250): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس بيروت، ط2، دت.
- الألويسى (محمد شكري): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المكتبة الأهلية القاهرة، 1928
- جاد المولى (محمد أحمد) والبقاوي (علي محمد) وإبراهيم (محمد أبو الفضل): قصص العرب، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1962
- سحاب (فكتور): إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، المركز الثقافي العربي. بيروت. ط1، 1992
- الشهرستاني (أبو الفتح محمد): الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي. المكتبة العصرية بيروت، ط1، 2007
- شيخو (لويس): النصرانية وأدائها بينة عرب الجاهلية، دار المشرق، بيروت، ط2، 1989
- علي (جواد): تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1955
- المسعودي (أبو الحسن علي، ت 346): مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الكتب العلمية بيروت دت
- ابن هشام (عبد الملك، ت 218): السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001

ب- في اللسان الأعجمي

- Andrae(tor). Les origines de l'Islam et le christianisme. Adrien Maisonneuve. Paris 1955
- Caillois(R). L'homme et le sacré. Leroux. Paris 1939
- Chelhod(J). Structures du sacré chez les arabes. Maisonneuve et Larose 1964
- Eliade(M). Traité d'histoire des religions. Payot. Paris 1949
- Fahd(Toufic). La divination arabe. Sindbad. Paris 1987
- Gaudetfroy-Demombynes(M). Le pèlerinage à la mekke. Paris 1923



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com